

إشكالية المقدس كمفهوم Sacred problematic as a concept

د/ سعاد حميدة

م . ج عبد الحفيظ بوالصوف_ميلة

ملخص:

لقد صيغ مفهوم المقدس بالاعتماد على الغموض والالتباس في الثقافة الغربية، حيث لم يعط أصحاب المساهمات التأسيسية في علم الاجتماع وتاريخ الأديان نفس المضمون لمصطلح المقدس، فتعددت الآراء والدراسات، وفي مقابل ذلك كانت النظرة الإسلامية للمقدس مختلفة طبقا لاعتبارات معينة، وهو ما دفعنا لبسط هذه الفكرة ومعرفة وجهة نظر الباحثين الغربيين وثم وجهة نظر الباحثين العرب، فما طبيعة هذا المفهوم عند كليهما؟.

الكلمات المفتاحية: المقدس، الغرب، العرب، الإسلام، الإلهي.

Abstract:

The concept of the sacred was based on ambiguity and ambiguity in Western culture. The founders of sociology and the history of religions did not give the same content to the sacred term. There were numerous opinions and studies. In contrast, the Islamic view of the holy was different according to certain considerations. The view of Western researchers and then the point of view of Arab researchers, what is the nature of this concept in both?

Key words: The sacred, the west, the Arabs, Islam, the divin.

المقدمة:

إن وضع تعريف دقيق للمقدس أمر صعب، لارتباط هذا المفهوم بعدد الحقل المعرفية سواء تاريخ الأديان أو الفلسفة أو علم الاجتماع... الخ، فهو يعتبر مجالا غامضا متجاوزا الحقل الديني إلى فضاءات أخرى تجعله مفتوحا لاختلاف السياقات الثقافية التي ينتهي إليها، وما يزيد من اتساعه أنه «مفهوم شاسع يسع معاني عديدة بما في ذلك المعنى ونقيضه من جهة أخرى»¹ ولا يتوقف الأمر هنا فهذا المفهوم يحوي العديد من المصطلحات المتناقضة ما يصعب من المهمة أكثر، حيث يصبح الإمساك به أمرا مستعصيا، يقرّ بذلك

الدارس "عبد الهادي عبد الرحمان" في قوله: «لا معنى أن نتحدث عن شيء لا نستطيع أن نمسك به إلا في حالته الدارجة وهو زلق دائماً، بسبب كثافة العلاقات التي تخترقه، لذا لا يمكن للباحث أن يلتقط هذه العلاقات في لحظة واحدة فالشبكة كلها ممتلئة»²، إن المقدس يبدو هنا أمراً متسامياً يعلو على البشر، فيشعرون حياله بالضعف والتبعية ما يجعلهم يحيطونه بهالة من التبجيل والاحترام لاضمحلال ذواتهم وتضاؤلها أمامه.

والدارس "روحيه كابوا" وفي إطار تحديد ميزات المقدس اعتبره «خاصية ثابتة أو عابرة لبعض الأشياء، أو الكائنات، أو الأمكنة أو الأزمنة»³، فحسبه كل الأشياء صالحة أن تكون مستقراً للمقدس وهو ما يعقد الأمر ويزيده غموضاً، فاختلفت بذلك وجهات نظر الباحثين حياله، ولعل أول سؤال يعترض الباحث وهو يفتح موضوع المقدس «هل يمكن اعتبار البدء بالبحث عن ماهية المقدس مدخلاً من مؤدياته الإمساك بالمقدس أم أن البحث عن هاته الماهية، إعلان بدئي بأننا سنتحرك خارج مجاله وسلطته؟»⁴.

لقد كان تناول مفهوم المقدس شيئاً ملتبساً سواء في الدراسات الغربية أو العربية الإسلامية، ومن راودتنا الفكرة لبسط وجهات النظر هذه، والسؤال المطروح ما وجهة نظر الباحثين الغرب وكذا المسلمين العرب لمفهوم مصطلح المقدس؟ وسنبداً ببسط المصطلح من الجانب اللغوي ثم نعرض وجهات النظر لدى الدارسين الغربيين ثم العرب المسلمين.

أ_ المفهوم اللغوي:

سنتبع المفهوم اللغوي أولاً في المعاجم العربية ثم الغربية.

* في المعاجم اللغوية العربية: ورد تعريف المقدس في المعاجم العربية وكذا الأجنبية وستكون البداية مع ما أورده اللغويون العرب من مفاهيم في معاجمهم، فنجد في لسان العرب أن كلمة المقدس تنحدر من الجذر اللغوي "قدس" الذي يعني الطاهر والمبارك والمنزه عن العيوب والنقائص «فالتقديس تنزيه الله عز وجل، وفي التهذيب تنزيه الله تعالى، وهو المتقدّس والقُدّوس والمقدّس، ويقال القدّوس فعول من القدس وهو الطهارة، قال الأزهري: لم يَجْئ في صفات الله تعالى غير القدّوس، وهو الطاهر المنزه من العيوب والنقائص وفِعُول بالضم من أبنية المبالغة والتقديس: التطهير والتبريك. وتقْدَسَ أي تطهّر»⁵، و«التقديس التطهير، وتقديس أي تطهر والأرض المقدسة: المطهرة»⁶، فالجلي أن كلمة القدوس من أسماء الله الحسنى التي جاءت على وزن فعول «لأنه منزه عن الأضداد والأنداد والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً»⁷.

وانطلاقاً من فكرتي الطهارة والبركة، تنبثق تسميات أخرى ما يوحى بالخصوصية حيث «حظيرة القدس (الجنة)، وروح القدس (جبرائيل)، والأرض المقدسة (الشام)، وبيت المقدس»⁸، ولفظ التقديس ورد في عديد آيات القرآن الكريم، من ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»⁹.

لقد انتهينا إلى أن دلالات المقدس في اللغة العربية، لا تخرج عن كونها تفيد التنزيه أو الطهارة أو البركة وهي تبدو ذات أبعاد دينية متمحورة حول الذات الإلهية، حيث الله واجب التنزيه وهو مصدر الطهارة، ووفقاً لذلك فكل الموجودات تستمد قدسيتها من لدنه، أما ما وصف بالطهارة والبركة فإنه يلحق بالمقدس، وعليه فإن لفظ المقدس له مرجع واحد هو الله بعيداً عن البشر مهما علا شأنهم، كالأنبياء أو الظواهر الزمانية أو المكانية، التي وإن تقدست فإن ذلك يعني التطهير والبركة.

* في المعاجم الغربية: في قاموس أكسفورد نجد لفظ مقدس Sacred: يعني «صفة متعلقة بالرب أو الإله معنية بشيء مقدس: صورة مقدسة، ضريح مقدس، معبد، موسيقى مقدسة»¹⁰، وفي لاروس تعني «قدس: الذي له علاقة مع الألوهية، والذي يجب أن يهتم الاحترام المطلق (...)، الفن المقدس: الفن الديني في خدمة العبادة، النار المقدسة، العواطف النبيلة والعمل الجاد، الكتاب المقدس وكلية الكتاب المقدس، جميع الكرادلة في الكنيسة الرومانية»¹¹. وفي اليونانية تشتق كلمة المقدس «من Hag الدال على الإجلال، كما تدل كلمة Hagns على المقدس الإلهي، وما يحيطه الإنسان من خشية دينية، أما في اللاتينية فيشتق المقدس من الجذر اللغوي Sacer، الدال على الطبيعة الإلهية المرتبطة بالدين الذي ينظم العلاقة بين الآلهة والبشر، وما يتعلق بذلك من بخور وقربان وطقوس وأشجار ومغارات ومنايع مائية»¹².

وفي موسوعة لالاند الفلسفية نجد «قدسي، مقدس: ما ينتسب إلى نظام أشياء منفصل، مخصوص لا يقبل الانتهاك، ما يتعين عليه أن يكون موضوع احترام ديني من قبل جماعة من المؤمنين»¹³، حيث أخذ بهذا المعنى لقوته وعموميته مقارنة باستعمالات أخرى، أما في قاموس الأنثروبولوجيا فكلمة مقدس Sacred تعني «صفة يطلقها المجتمع على أشياء وأماكن وأعمال يعتبرها واجبة الاحترام، فيقيم لها طقوساً دينية لاعتقاده باتصالها بعبادة الإله أو الآلهة أو المعبودات أو القوى فوق الطبيعية، أو لأنها ترمز إلى القيم الأساسية للمجتمع، ولذا فهي مصونة من العبث أو التخريب، والمصطلح نقيض مصطلح (غير مقدس)، ويختلف تصنيف الأشياء والأماكن إلى مقدس وغير مقدس باختلاف الجماعات ووفقاً لما تتواضع عليه»¹⁴.

إن المقدس مفهوم معقد تخرج منه شبكة معقدة من المفاهيم تشتت ذهن الدارس وتفرّعه إلى «الديني والإلهي والأعلى والسمائي، والأرضي والخطيئة والاحترام والرهبة والخضوع

والمحرم والخرق...»¹⁵ ، حسب المخطط الذي وضعه الباحث عبد الهادي عبد الرحمان والذي يثبت حجم هذا التعقيد.

وعليه فإن المفهوم اللغوي للمقدس في المعاجم الغربية يعني كل ما يتعلق بالديني وبالطقوس الدينية، وكذا كل ما يدفع للتبجيل الديني وما يدعو للاحترام ولا يقبل الانتهاك، فيثير في النفس الرهبة والاندھاش أمام المجهول، كما نجده مرتبطا بالعالم الذي يفهمه رجال الدين فيكون له تأثير على حياتهم جوهريا، وهناك مصطلحات أخرى تنتمي إلى مجاله وهي: الإلهي، المتعالي، النهائي، الغموض، النقاء...، حيث المقدس غير مقتصر على الإلهي بل يشمل الأشخاص الذين يستمدون سلطتهم الدينية من السماء والكنيسة وهم القديسون، إضافة إلى المكان والزمان ومختلف الأشياء التي تبعث أحاسيس الرهبة والاندھاش في النفوس، فلا يجب أن تنتهك، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى أن نفهم أن المقدس لا يرتبط بالمجال العلوي (الآلهة) فقط، وذلك لارتباطه كذلك بالعالم السفلي (البشر، مظاهر الطبيعة)، فمن هنا «نستطيع أن نفهم بأن المقدس ليس أبدا علويا بل إنه مخلوق منتج من واقع صراعاتنا وحاجتنا الاجتماعية»¹⁶.

إن عرض مقارنة بين المفهومين اللغويين العربي والغربي للفظ المقدس يقودنا إلى استنتاج وجود تقاطعات دلالية بين المفهومين، من حيث الارتباط الديني وكذا الاحترام والتبجيل والصفاء وعدم الانتهاك، أما الاختلاف الذي لمسناه بينهما فهو يكمن في مسألة التنزيه الخاصة بالذات الإلهية ففي اللغة العربية التقديس يعني تنزيه الله تعالى عن كل ما يرتبط بالشرك، فتمحور بذلك حول الذات الإلهية، في حين المفهوم الغربي مال إلى تقديس الذات الإنسانية، ليتقاطع المفهوم اللغوي الغربي للمقدس مع نظرة الأنثروبولوجيين، وسنحاول كشف مفهومه الاصطلاحي في الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية.

ب_ المصطلح وفق وجهتي النظر الغربية والعربية الإسلامية:

ب.1_ وجهة النظر الغربية:

قد حدد J. Z. Wenenberger مجموعة أسئلة اعتبرها من كبريات الأسئلة التي يجتمع عندها أغلب دارسي المقدس باختلاف اختصاصاتهم وهي: «هل يمكن تعريف المقدس بذاته أم فقط مع مفاهيم أخرى منافسة ومعارضة له من مثل المحرم والمدنس والعجيب أو الطاهر أو النجس؟ هل يوحى المقدس بالإلهي le devin أم أنه مكوّن سيكولوجي للذات الإنسانية، يتخذ شكل استيهامات وأوهام إسقاطية؟ ويحيل السؤال الأول على المشكلة التي يطرحها تعريف المقدس، خصوصا حينما ندرك العلاقة الدلالية المعقدة والمتداخلة التي تربطه بشبكة

المفاهيم الملزمة له، إن الإيهام لم يعد خاصية لصيقة ومؤسسة للمقدس، بل أصبح سمة من سمات الكتابات والأبحاث التي تحاول تحديده وتعريفه، أما السؤال الثاني فإنه يثير أكبر المشكلات تعقيدا وحساسية، تلك التي تتمثل في علاقة المقدس بالدين من جهة وبالعقود النفسية والإحساس من جهة أخرى»¹⁷.

وفي إطار العلاقة الرابطة بين المقدس والدين، فالباحث كذلك تواجهه أسئلة يطرحها J. Wenninger مرة أخرى من مثل «هل يشكل الدين جوهر المقدس أم العكس؟ من يؤسس ويرسي الآخر؟ هل يتكاملان أم يهدم كل واحد منهما الآخر؟ هل يعضد الدين المقدس أم يحاربه؟ هل يمكن أن نمائل بين المقدس والإلهي؟ هل مهمة الدين تكريس المقدس أم تقنينه وضبطه ومن ثم تقييد أشكال حضوره وأنماط الارتباط به؟ وإذا كان هذا الشق الأول محكوما بالوجود الخارجي والموضوعي للمقدس، فإن الشق الثاني يحيل إلى الحضور الداخلي والذاتي للمقدس، لذا فإن الأسئلة التي يثيرها تتمايز نوعا ما عن الأسئلة السابقة من حيث أنها تصب في الكيفية التي يعبر بها الإنسان عن طاقاته الداخلية والدفينة والغامضة، فكيف يعبر بها الإنسان عن هذه الطاقة الداخلية؟ ما هي تمظهراتها؟ ما هي نوعية المعاني التي يهبها الإنسان لجسده، لسلوكاته، لأحلامه، لأشعاره، للعبة، لطقوسه وشعائره، لعلاقته بالمرئي واللامرئي، لعلاقاته بالزمن والمكان»¹⁸، وهي حسب الأسئلة الرئيسية التي تواجه دارسي المقدس باختلاف اختصاصاتهم حيث يعالجها كل باحث حسب ما يحمله من مرجعيات نظرية وتخصصية، علما أن نظرة الباحث الأنثروبولوجي وطريقة تعامله وتناوله لمقولة المقدس ليست عينها عند اللاهوتي.

والمعلوم أن البحث السوسيولوجي لازال يعاني لليوم التبعية والهيمنة الغربية في مفاهيمه فبالرغم من أن «كل أعمال النقد والمراجعات التي طالت المصادر المعرفية والمسلمات النظرية للمساهمات التأسيسية، لم يتحرر علم الاجتماع إلا بدرجة محدودة من آثار النزعتين التطورية والمركزية الغربية، وهما اللتان وجهتا صياغة العديد من مفاهيمه»¹⁹.

ولقد شهدت محاولات بناء الدين كأحد أهم المواضيع البحثية في العلوم الاجتماعية بروز مدرستين غريبتين (الوضعية الفرنسية والظواهرية)، وقد عملت المدرسة الدوركهايمية على تقديم مقترحين اثنين أما الأول فهو القيام «بنحت مفهوم المقدس Le sacré انطلاقا من النعت مقدس sacré، وأعطته دورا محوريا في تحليل التجربة الدينية، أما المقترح الثاني فيتمثل في تعريف المقدس بتعارضه الجوهر مع الدنيوي Le profane»²⁰، حيث الظاهرة الدينية عند دوركهايم، قائمة على الانقسام الثنائي للعالم وذلك بتقسيمه إلى مجالين يتسمان بالتعارض والنفور هما المقدس والدنيوي، بحيث يمنع على كل الكائنات والأشياء العادية، الاتصال والاقتراب من الأول كونه محاطا بالمحظورات، ومن هذه النقطة صيغ مفهوم الدين عند

دوركهيم فهو عنده يعني «نسقا متضامنا من الاعتقادات والممارسات المتعلقة بأشياء مقدسة، أي مفصولة ومحظورة، معتقدات وممارسات، توحد كل من ينخرطون فيها ضمن جماعة أخلاقية واحدة تسمى كنيسة»²¹، والنزعة الوضعية لصاحب هذا التعريف، والذي امتنع فيه عن تعريف الدين بعلاقته بفكرة الألوهة قادتته إلى وضع تعريف ثانٍ مواز للمقدس فيه تأكيد على مصدره الاجتماعي فهو «ليس سوى تعبير عن السلطة المتعالية، التي تمارسها الجماعة على الأفراد، والإله ليس في النهاية سوى صورة المجتمع الأمر والنهي»²².

ولقد شكلت له دراسات كلا من الباحثين "هنري هوبارت" و"مارسيل موس" عن السحر والديانات البدائية أهم داعم فيما وصل إليه وخاصة من جانب «اكتشافهما لـ المانا Mana، أي القوة الانتشارية واللامشخصة التي تجسد المقدس»²³ من جانب، وكذا في دراسة الباحث الفرنسي M. Mauss حول الهبة والسحر، حيث يرى أن فكرة المقدس تستمر في غموضها مما فرض على مجال البحث «ما يمكن تسميته بالبرهنة الخلفية، فكل سؤال عن المقدس يتحول إلى سؤال عما يعارضه ويخالفه، وكل تعريف للمقدس يحيل إلى تعريف ما يعارضه، بل يصبح تعريفا لهذا التعارض الذي يصطلح عليه بالمدنس»²⁴، فيما تتمثل إضافته هو ولمسته الخاصة في هذا المجال كزعيم للمدرسة الوضعية الفرنسية، هو اعتباره «أن المقدس ليس خاصية للمجتمعات البدائية، بل تختبره كل المجتمعات في حالة الغليان الاجتماعي والانفعالات الجماعية القوية»²⁵، فيكون علم الاجتماع الدوركايمي بهذا قد اختصر المقدس في تموضعه الاجتماعي وعرف الديني بالمقدس وجعله متعارضا مع المدنس، فكان المقدس هو الحقيقة المطلقة والمدنس هو عالم كل ما فيه متسخ ومفارق للعالم الرباني، وبلغة الفلاسفة المقدس جوهرًا والمدنس عرضًا.

ومن خلال هذا التعارض الحاد بين المقدس والمدنس يتبين استقلالية كل منهما بعالمه ونظامه وفضائه وزمنه، كما يتجلى لنا الشكل الذي اتخذته المقدس والمدنس، باعتبارهما وجهين متعارضين، فالمقدس لا يلتقي بالمدنس إلا لكي ينتفي أحدهما ويظل الآخر قائما إلا أن الدراسات التي أتت بعد دوركهيم، حاولت أن تخفف من وطأة التعارض القائم بين المقدس والمدنس، وفك وصال التماهي بين المقدس والديني من دون إلغاء تلك التشاركات الحاصلة بينهما، كما أن تعريف المقدس بالديني لم يلق تجاوبا عند الباحثين وهذا لأنه لم يأخذ بعين الاعتبار الفروقات العمودية أو الأفقية الحاصلة بين الديانات «فالمدرسة الظواهرية رفضت الجانب الوضعي منه، أي تعريفه للمقدس بخصائصه الخارجية واختزاله في الوعي الجماعي، واختصت بوصفه كما يتجلى في الشعور، كما اعتبرت أن موضوع التجربة هو الإلهي وليس

الاجتماعي»²⁶، بينما تركز تحليل الباحث رودولف أوتو على ذلك الشعور بالإلهي كما يصفه بقوله: «هذه الحالة الذهنية الفريدة بنوعها، كاملة وممتنعة على أن تستحيل شيئا آخر»²⁷، إضافة على ما يثيره من مظاهر الإجلال والروعة والدهشة، أما «مرسيا إلياد» فإن أبحاثه المكملّة تدرس تجليات المقدس، حيث الإلهي والمتعالى لا يتجلى أبداً في صورته المطلقة، وإنما عبر وسائط وهو التفسير المناسب لـ «تعدد الأشكال التي يظهر بها من طقوس وأساطير ورموز وكائنات وأماكن وأزمنة»²⁸، حيث «الكون في كليته يمكن أن يصبح تجلياً قدسياً»²⁹.

إن جل المساهمات التأسيسية سواء في تاريخ الأديان أو في علم الاجتماع، لم تعط المضمون نفسه للفظ المقدس، إلا أن عدم اختلافهم كان حول «كونية المفهوم التي تستند في المقام الأول إلى مسلمة التعارض الجذري بين المقدس والدنيوي، وإلى جانب هذه المصادرة لم ير الكثير من الباحثين حرجاً، في تبني التصور الذي قدمه دوركهيم عن ازدواجية المقدس»³⁰، رغم ما يطبع تصوره من خلط وعدم وضوح، والخلط يكمن في استخدامه مصطلح المقدس للدلالة على مفهومين في الآن ذاته فهو يدل «على قوى خيرة كالآلهة والملائكة، وأخرى ملوثة وشريرة كالشيطان، كما أكد أن الطاهر والخبيث لا يمثلان نوعين مختلفين، بل فئتين تنتميان إلى نفس النوع أي الأشياء المقدسة، ونفى القطيعة بين هذين الشكلين المتعارضين»³¹.

ووحدها المدرسة الفرنسية تتحمل مسؤولية تجاهلها كل المحاذير التي تحيط بدراسة المقدس، ذلك أنه واقعيًا «لا يمكن إعطاؤه تعريفاً يتمتع بالمصداقية، ويكون صالحاً لفهم وتحليل مختلف التجارب والأنساق الدينية، إلا إذا تحقق التوافق بين مضمونه وبين تصورات مختلف الأديان والجماعات الدينية لما هو مقدس»³²، والحال أن المقدس الدوركايمي يتعارض مع فكرة المقدس، والدلالات الحافة به في كل من الديانتين اليهودية والإسلام، فالمماهة بين المقدس والإلهي أو الديني أمر مرفوض، لأن المقدس بالنسبة إليه «قد يكون تعبيراً من تعبيراته أو تجلياً أو شكلاً للاقترب منه، إنه يلبي إحساساً لدينا يصعب تعريفه مثله في ذلك مثل أي إحساس عكس هذا، فإن تمظهرات هذا الإحساس قابلة لأن تحلل، ولأنه ليس مرادفاً للإلهي تتحول جدلية المقدس من جدلية مفارقة إلى جدلية معيشة»³³.

ب.2_ وجهة النظر العربية الإسلامية:

إن فكرة كونية المقدس وكونية مقولاته، أبداً لا تنفي وجود خصوصية للمقدس في مختلف الثقافات لاختلاف المرجعيات فلا يشترط تطابقها، ودوماً يراودنا هذا التساؤل كيف يمكن لهذه الثقافة أن تتدخل بنصوصها ومقوماتها نظراً لوجود التعارضات والاختلافات حول تحديد مفهوم المقدس؟ وهو ما يدفعنا لعرض بعض الآراء لبعض الباحثين المهتمين بالمقدس في الثقافة العربية الإسلامية، حيث اشتغلوا في هذا المجال وكونوا وجهات نظر.

تستعمل النصوص الإسلامية بعض الألفاظ المشتقة من الجذر ق. د. س، كما قال ابن كثير حين فسر الآية الثلاثين من سورة البقرة من قوله تعالى «...وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...»³⁴ حيث: «التقديس هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم سَبَّوحٌ قَدَّوسٌ يعني بقولهم سَبَّوحٌ تنزيه الله، وبقولهم قَدَّوسٌ طهارة وتعظيم له»³⁵، فكل المعاني تفيد معنى الطهارة بالإضافة إلى معنى الإجلال والتعظيم، والقُدَّوس هو أحد أسماء الله الحسنى التي تحمل معنى المنزه عن النقائص، إضافة إلى استعمالها بعض الألفاظ المشتقة من "ط، ه، ر" وكذلك "ح، ر، م"، وإن لم يخرج اللفظ الأول عن معنى القداسة والطهارة والتنزيه» وكذلك المقدس المحاط بالمحظورات، فإن عبارات الحرام والمحرم والحرم وما إليها تمثل صيغا مختلفة للدلالة على مجالين متعارضين، أولهما المحاط بالمحظورات بسبب قداسته، وفي هذه الحالة فإن الحرام والقدسية ينتميان إلى نفس الحقل الدلالي، وثانيهما المحاط بالمحظورات بسبب خبثه، وفي هذه الحالة فإن الحرام والقدسية ينتميان إلى حقلين دلاليين متعارضين»³⁶.

وعن الانتماء لنفس الحقل الدلالي بين المحرم والمقدس نضرب مثلا بتلك الأماكن والأزمنة ومجموع الأفعال المخصصة لله مثلا في البيت المحرم "مكة" بحيث لا يمكن أن يدخلها إلا مسلم متطهر في بدنه وروحه، وكذلك الدخول في الصلاة والصوم في شهر رمضان، أما أن ينتمي اللفظان لحقلين متعارضين فمثال ذلك أكل الجيفة أو لحم الخنزير أو الميسر والأزلام، وكذلك تحريم الزواج بالمحارم وبعض المقربين على المسلم، وعلى هذا الأساس يمكننا القول «إن المقدس Sacré في الإسلام يتمحور على فكرة الحرام المتسمة بالازدواجية، إذ تحيل في بعدها الأول إلى ما هو طاهر يستوجب التقديس، أو أمر إلهي يستوجب التنفيذ، وفي بعدها الثاني إلى ما هو نجس أو رجس يستوجب الاجتناب»³⁷، والقطب المقابل لهذا المفهوم هو الحلال وهو لا يتضمن خطرا يستدعي الحظر، لكن مشروط على الفرد حين يرغب في استخدام أشياء خارجة عن الحلال وواقعة خارج مجاله أن يقوم «بتخليصها من عناصرها الخطيرة طاهرة كانت أو ملوثة باللجوء إلى طقوس التطهير»³⁸، فما نستنتجه أن العلاقة بين المقدس والمحظور في الثقافة الإسلامية لا يطبعها التعارض المطلق مثل نظيرتها الغربية والدور كإيمانية على الخصوص التي أقرت بالتعارض الجذري واستحالة المرور بينهما، دون أن يمس التحول شخصية الإنسان.

وفي هذا الإطار عمل الإسلام على فرض جملة من الشعائر، تعتبر وسيلة يتقرب بها العبد لربه، فالصلاة والحج تستفتحان بالنية والتطهير وللاخير الإحرام، وبالتسليم تنتهي الصلاة كعملية إحالية، ولكن الحظر في الإسلام غير مطبوع بالكتافة دوماً «ففي بعض الشعائر الأخرى يقتصر الأمر على النية والبسملة كما هو الشأن عند ذبح الضحية، وإذا ما تجاوزنا هذه

الشعائر، فإن طقس العبور بين المقدس والدنيوي أو البشري يتلاشى، إذ المسلم يخاطب ربه ويدعوه بلا مقدمات ولا شروط»³⁹، إضافة إلى أن فرض الصوم لا يلزم المسلم الانقطاع عن العمل وغيره من النشاطات والأمثلة كثيرة.

والدارس "يوسف شلحد" من جانب آخر يؤكد على ضرورة تمييز المقدس sacré عن القداسة sainteté داخل الثقافة العربية، على اعتبار أن المقدس مختلف عن الدين ومتميز عنه، فوفقاً لرأيه إذا كان المقدس «يعانق في نفس الوقت كلا من الطاهر le pur والدنس l'impur فإن الدين موجه نحو القداسة بما هي طهارة pureté فبناء على تمييزه هذا فقد عقلن الإسلام القدسي وجعل الله مصدره الأوحد»⁴⁰، فالقداسة هنا أصبحت متوقفة على السماء ولصيقة فقط بالله، ما يعني هجرانها الأرض، باستثناء بعض المقدسات النازلة من السماء كالقرآن والحجر الأسود، فما اعتبر مقدساً فما هو في حقيقته إلا تجلياً للمقدس.

والباحث "نور الدين الزاهي" يرى أن «تحويل الإسلام القداسة إلى مجال مفارق سمح لجوزيف شلهود (يوسف شلحد) بالحديث عن مقدس طاهر sacré pur ، بوصفه ما يتقابل في اللغة العربية الإسلامية مع لفظة الحرام التي تعني الإلهي le divin أو ما يحتضن نفساً إلهياً، وتحيل لفظة الحرام إلى ما هو قداسي saint في تعارضه الكامل على ما هو نجس souille ، مثلما تشير إلى ما هو ممنوع interdit كلية أو جزئياً، وبذلك فإنها تصبح المقولة الأساسية المعبرة والمجسدة في نفس الوقت للمقدس الإسلامي، سواء من حيث ازدواجية دلالاته أو من حيث غموضه»⁴¹.

أما الباحث "مالك شابل" M. chebel فيظل في نفس السياق الذي رسمه "شلحد" فينتقل من الازدواجية نفسها حول لفظة الحرام «التي تحيل على الممنوع (المحرم) وعلى التقديس (الإحرام والحرام)، ليوزعهما على حدين هما التطهر purification والإحرام فالتطهر يتشكل بشكل جلي على مستوى الفرائض والمعاملات، وتجسده مقولة الحلال وهذا الأخير يقوم على التطهر سواء في مستواه الأولي الذي قد يتعلق بما نتناوله من طعام طيب أو على مستواه الروحي الذي يعني التطهر مما ليس لله، أما الإحرام فيتجسد في مقولة الامتناع أو المحرم (الممنوع)، الذي يستهدف رفع النجاسة la souillure سواء في أشكالها الصغرى الجسدية أو الكبرى من مثل نجاسة النفس والسلوك»⁴² وتظل النتائج التي توصل إليها الباحثان تعاني من قصور، لأن كليهما أغفل أمراً مهماً فالأول تناسى بعد الانتهاك، الناتج عن حركية المقدس والدنيوي في الثقافة الإسلامية بتركيزه على مقولة الحرام، وتوجه الثاني نحو منطقة الحلال والحرام، باعتبارهما المنطقة المركزية لمجال القداسة الإسلامي فإنه يفضي مباشرة إلى إغفال ماهية المقدس.

وعموماً فقد أسست حدود بين المقدس والدنيوي في رحاب الإسلام بتحديد مجالي الحلال والحرام ووسمت بالحركة لا الجمود عكس ما روج له الغرب في دراستهم للمقدس، ورغم وفرة التعريفات التي وضعها الدارسون باختلاف تخصصاتهم فإننا نقرّ بصعوبة ضبط مفهوم المقدس ومحاصرته لشدة تداخله مع المندس واعتباره من أشد المصطلحات تعقيداً، فبدلاً من إسقاط مفاهيم مغايرة لثقافتنا الإسلامية والسعي لتحديد جوهر القدسي وأصوله اتباع ما يراه «علماء الأثنولوجيا والاجتماع أن من الحصافة توصيفه بالاستناد إلى تجلياته البرانية، وتحديدًا من خلال المواقف والاستعدادات التي يثيرها لدى المؤمنين»⁴³ حيث الاشتغال بالمقارنات دون أي رابط حقيقي بينها لا توصل لنتيجة.

الإحالات الهوامش:

¹ _ حمادي المسعودي: متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، تونس، دار المعرفة، ط2007، ص20.

² _ عبد الهادي عبد الرحمان، عرش المقدس، الدين في الثقافة والثقافة في الدين، بيروت، لبنان، دار الطليعة، ط1، 2000، ص8.

³ _ روجيه كايوا: الإنسان والمقدس، تر: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، ط2010، ص3.

⁴ _ نور الدين الزاهي، المقدس والمجتمع، المغرب، أفريقيا الشرق، د ط، 2011، ص32.

⁵ _ ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د ط، د ت، ج6، ص168.

⁶ _ الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ج3، 1990، ص960-961.

⁷ _ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، ج5، د ت، ص64.

⁸ _ محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، تح: أحمد إبراهيم زهوة، لبنان، دار الكتاب العربي، د ط، 2004، ص257.

⁹ _ سورة البقرة، من الآية30.

¹⁰ _ A S Homby, Oxford A advanced Learner s Dictionary of Current English , 8 th Edition , Oxford University Press 2010, p: 1347.

¹¹ _ Larousse, Dictionnaire en 1 volume, Librairie Larousse, Canada, 1979, p : 1249.

¹² _ Paul poupard : Dictionnaire de religions, PUF, Paris, 1984, p : 1483-1484

¹³ _ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: أحمد خليل، ط2، ج3، منشورات عويدات، بيروت، لبنان2001، ص1229.

¹⁴ _ مصطفى سليم شاكر، قاموس الأثنروبولوجيا، إنجليزي_عربي، جامعة الكويت، ط1، 1981، ص837.

- ¹⁵ _ ينظر عبد الهادي عبد الرحمان: عرش المقدس، ص 9.
- ¹⁶ _ المرجع نفسه، ص 17.
- ¹⁷ _ نور الدين الزاهي: المقدس الإسلامي، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2005، ص 27 ص15.
- ¹⁸ _ المرجع نفسه، ص 15-16.
- ¹⁹ _ عبد اللطيف الهرماسي، في الموروث الديني الإسلامي، قراءة سوسولوجية تاريخية، لبنان، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012 ص 37.
- ²⁰ _ ينظر المرجع نفسه، ص 39.
- ²¹ _ Voir Emile Durkheim : Les formes élémentaires de la vie religieuse, PUF, 1998, P: 92-93-97-98-108-109.
- ²² _ Ibid, p, 365-377
- ²³ _ عبد اللطيف الهرماسي، في الموروث الديني الإسلامي، ص 40.
- ²⁴ _ نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2005 ص 17.
- ²⁵ _ المرجع نفسه، ص 40.
- ²⁶ _ المرجع نفسه، ص 40.
- ²⁷ _ رودولف أوتو: فكرة القدسي، التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، دار المعارف الحكيمة، ط2010، ص1، ص29.
- ²⁸ _ عبد اللطيف الهرماسي، في الموروث الديني الإسلامي، ص 41.
- ²⁹ _ مرسيا إلياد: المقدس والمدنس، تر: عبد الهادي عباس، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 1988 ص 17.
- ³⁰ _ عبد اللطيف الهرماسي، المرجع السابق، ص 41.
- ³¹ _ المرجع نفسه، ص 42.
- ³² _ المرجع نفسه، ص 43.
- ³³ _ المرجع نفسه، ص 18.
- ³⁴ _ سورة البقرة، من الآية 30.
- ³⁵ _ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج1، د ط، دار نور الكتاب، الجزائر 2007، ص 114.
- ³⁶ _ عبد اللطيف الهرماسي، الموروث الديني الإسلامي، ص 92-93.
- ³⁷ _ المرجع نفسه، ص 94.
- ³⁸ _ المرجع نفسه، ص 94.
- ³⁹ _ المرجع نفسه، ص 94-95.
- ⁴⁰ _ يوسف شلحد: بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده، تع: خليل أحمد خليل، بيروت، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1997، ص 39.
- ⁴¹ _ نور الدين الزاهي: المقدس الإسلامي، ص 27.
- ⁴² _ Chebel Malek, l'imaginaire arabo - musulman, paris, PUF, 1987, p : 125-129.

⁴³ _ يوسف شلحد، بنى المقدس، ص 24.